www.SID.ir

الزهد الاسلامی وتطوره إلی التصوف منذ القرن الثانی حتی القرن الرابع الهجری

یوسف هادی‌پور نهزمی*

الملخص

قد یتساءل الکثیرون عن نشأة الزهد والتصوف وتطورهما بعد ظهور الدین الإسلامی الحنیف کما أن هناک آراء متباینة حول تقدیم الزهد علی التصوف أو التصوف علی الزهد. إلا أن هناک دلالات تاریخیة تنم عن تقدم الزهد علی التصوف وتحرک النزعة الصوفیة فی إطار التدین ثم فی إطار الزهد إلی أن أصبحت نهجا روحیا.

ومن هذا المنطلق یلقی هذا المقال الضوء علی هذه القضایا الإسلامیة الهامة التی طالما شغلت أفکار الباحثین والنقاد لیزیل الستار عن مجهولات هذه العلوم الإسلامیة التی أسفرت عن کم هائل من الفنون الأدبیة شعرا ونثرا وکانت ولم تزل تدرس فی الجامعات.

الکلمات الدلیلیة: الدین، الخوف الإسلامی، الزهد، التصوف.

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامیة فی کرج (استادیار دانشگاه آزاد اسلامی واحد کرج).

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۳/۱۰هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/۵/۱۸هـ. ش

www.SID.ir

www.SID.ir

المقدمة

بعث اللّه رسوله (ص) ونزّل عليه القرآن ليكون للنّاس فرقانا. وأكمل دين الحقّ ليقود الناس فی حياة الدنيا ويهديهم إلى جنّتهِ الخالدة؛ فأخذ الناس من ينابيع هذا الدين نصيبهم، فمنهم من تمسّک به فی حياة الدنيا ومنهم من استخدمه ليكون سعيدا فی حياة الآخرة ومنهم من اعتقد بأن الإسلام دين الدنيا والآخرة وفيه سعادة الدارين.

فاختلف الناس فی تعبيرهم عن الواقع الدينی، فنشأت هناک تعابير متعددة ومتضاربة عن الدين الإسلامی الذی يدعو إلى الخوف من الله تعالى والتجنّب من عذابه. فلجأَ كثير من الناس إلى التزهيد فی الدنيا وما فيها ونرى آثار هذه التعابير وتبعاتها عند الكثيرين من الّذين آمنوا باللّه ورسوله فی حياة الرسول صلّى اللّه عليه وآله. وبعد أن وافاه الله، وانتشر القلق والاضطراب فی الحكومة الإسلامية، توجّه الناس أكثر بكثير من قبل إلى الزّهد والفرار من الدنيا، خوفا من اللّه وخشيةً من الوقوع فی المعصية وما يترتّب على هذا الوقوع من العذاب والدخول فی النار التی كانت الأبدان تقشعرُّ لها والأنفس ترجف منها خيفةً منها ومن صور العذاب وأنواعه وطمعا فی جنة اللّه تعالى ونعيمه.

فهذا الزهد القائم على الخوف والرهبة من الوقوع فيما تُزيّنه الشهوات، تطوّر فی مفهومه فی القرن الثانی للهجرة، من الخوف إلى الحبّ، ومن الرهبة إلى الشّوق، ومن الحذر إلى الرجاء. وبعد أن كان هذا الزهد يتّجه إلى اللّه سبحانه وتعالى خوفا ورهبة من ناره، نجده بعد ذلک يتّجه إلى اللّه عزّ وجلّ حبّا فی ذاته، وعشقا لصفاته، لاطمعا فی جنته، أی أنّ هذا الحبّ اتجّه إلى ذات اللّه، لأنّه، عزّ وجلّ، أحقُ بهذا الحب. فلم يَعُد اللّه معبودا فقط، بل أصبح المعبود المحبوب.

فإذن القرن الثانی للهجرة كانت بداية نشأة التصوف وتطوّره الأوّل وقد أصبحت كلمة «الصوفی» تطلق على العابد الزاهد اللابس الصوفَ، حتّى إذا جاء القرن الثالث، وجدنا أنّ التصوف أصبح علما للنّفس والأخلاق والفناء فی وجود النفس والاتّحاد بالخالق.

فقد قدّم الصوفية الكثير من الآراء، الّتی كان لها تأثير عظيم فی مضامين الدين وفی تقديمهم للفكر الإنسانی بوجه عام وللفكر الإسلامی بوجه خاصّ تحليلاً نفسيّا ذا غاية

www.SID.ir

www.SID.ir

أخلاقية، كمّا قدّموا للفكر الفلسفی نظريات فی الوجود ومباحث فی المعرفة.

فما أجمعَ الصوفية عليه، واتّخذوا نحوه موقفا موحدا، هو تبيينهم للرّوح كمبدأ يُفسِّر حقيقة الوجود فی مجال النظر، وقدّموا معانی باطنة لشعائر الدين وعباداته من طهارة، وصلاة، وصوم، وزكاةٍ وحجّ. وجعلت هذه المعانی تظهر الشريعة الإسلامية بثوب مميّز عن الثوّب الذی حاكه لها رجال الفقه وأصحاب التشريع.

فالنزعة الصوفية إذن تحرّكت أوّل ما تحرّكت فی إطار التدّين، ثمّ فی إطار الزهد، إلى أن أصبحت نهجا روحيا، له مقوّماته وخصائصه المستقلة. وأصبح الشعر وسيلة فنيّة عميقة التأثّر بالمحيط الذی يعيش فيه. ولعل، أوّل شعر وصل إلينا يعبّر عن اتّجاه التصوف فی القرن الثانی تلک المقطوعات الروحية العميقة الّتی شدّت بها رابعة العدوية[1] فی أوائل هذا القرن وممّا روی من أناشيدها هی التی تقول من خلالها:

يا سُروری ومنيّتی وعمادی — وأنيسی وعُدَّتی ومُرادی
أنتَ روح الفواد، أنتَ رجائی — أنتَ لی مؤنسٌ وشوقک زادی
أنت لولاک يا حياتی وأنسی — ما تشتّتُّ فی فسيح البلاد
لَم بَدَتْ منّةٌ وكم لک عندی — من عطاءٍ ونعمةٍ وأيادی

(بدوی، ۱۹۷۸م: ۲۹)

بدأت رابعة تستشعر الحبَّ لِلّه، ولكن هذا الحُبّ كانَ مسبوقا بالتوبة. فهی قد فتحت صفحة جديدة فی حياتها، مغايرة لصفحتها السابقة، وهذه الصفحة كانت مزيجا من القلق والاستغفار والشّوق إلى المحبوب الذی اختارته لنفسها حيث تقول:

راحتی يا إخوتی، فی خَلْوَتی — وحبيبی دائما فی حَضْرَتی
لم أجد لی عن هواه عوضا — وهواه فی البرايا محنتی
حيثما كنتُ أُشاهِد حُسنَه — فهو مِحرابی، إليه قِبلتی
إنْ أمُتْ وجدا وما ثَمَّ رضا — وا عَنائی فی الوری! وا شقوتی

(المصدر نفسه: ۵۴)

۱. هی أمّ الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيک الصالحة المشهورة. كانت مِن أعيان عصرها. وأخبارها فی الصلاح والعبادة مشهورة. توفيت بين سنوات ۱۸۰ـ ۱۹۵ هـ‍ق.

www.SID.ir

www.SID.ir

فی هذه الأبیات تستخدم رابعة أسلوب الرمز، شأنها فی ذلک شأن الکثیرین من شعراء الصوفیة. الحبیب الذی تتحدّث عنه هو اللّه تعالی ولایمکن لها أن تجد حبّا آخر عوضا من حبّه ولایمکن لها أن تُشاهد حسنا آخر غیر حسنه.

ومن شعراء الصوفیة الّذین قالوا فی الحبّ الإلهی فی أواخر القرن الثانی الهجری، ذوالنّون المصری[1]. الّذی یعدّ الرائد الحقیقی للتّصوّف، وهو أوّل من تکلّمَ عن المعرفة الصوفیة مفرّقا بینها وبین المعرفة الفلسفیة الّتی تقوم علی الفکر، بینما تقوم المعرفة الصوفیة علی القلب والکشف والمشاهدة. وهذا قوله یخاطب ربّه ویقول:

أموتُ وما ماتتْ إلیک صبابتی ولا قَضَیتُ مِن صدق حبّک أوطاری
مُنایَ المُنَی، کلّ المُنی، أنتَ لی مُنیً وأنتَ الغِنی، کلّ الغِنی، عند اقتاری
وأنتَ مَدَی سؤلی وغایةُ رغبتی وموضع آمالی ومکنونُ أضماری

(السلمی، ۱۹۲۵م: ۲۱)

وترتفع حرارة الحبّ عند ذی النون المصری، فتهون أمامَها کلّ الآلام. إنّه یُصبر ویُطیل فی صبره لأنّه یحبُّ اللّه ـ عزّ وجلَّ ـ ویتقرّب إلیه ویتطلّب منه کلّ شیء. لهذا یتحوّل ألمه إلی اللّذّة وحُزنُه إلی السرور، فیقول:

لِمَ تَشتکی ألمَ البَلا وأنتَ تنتحل المحبّة
إنّ المحبّ هو الصّبو ر علی البلاء لِمَن أحبّه
حبّ الإله هو السرو ر مع الشّفاء لکلّ کرْبة

(الأصفهانی، ج۹، لاتا: ۳۴۵)

ثمّ یأتی بعد ذی النون المصری، أبویزید البسطامی[2]، الّذی دعا لفکرة الفناء فی الذات الإلهیّة، أی تجرّد النفس عن رغباتها وقمعها لشهواتها، مثل قوله:

۱. هو إبراهیم المصری أبوالفیض، ویقال: ثوبان بن إبراهیم و ذوالنون لقب له وهو مولی لِقُریش، توفی سنة خمس ومائتین. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۱۵ـ۱۶)

۲. هو طیفور بن عیسی بن سَرُوشان وکان جدّه سروشان هذا مجوسیّا فأسلَمَ وهم ثلاثة إخوة: آدم، وطیفور، وعلیّ، وکلّهم کانوا زهّادا وعبّادا وأربابُ أحوال. مات أبویزید سنة إحدی وستّین ومائتین. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۶۷)

www.SID.ir

www.SID.ir

أشارَ سربٌ إليک حتّی فنيتُ عنّی ودُمتَ أنتَ
مَحوتُ اسمی ورسمَ جِسمی سألتَ عنّی فقلتُ أنتَ
فأنتَ تسلو خيالَ عينی فَحيثُ درتُ فكنتُ أنتَ

(الأصفهانی، ج ۱۰، لاتا: ۳۶)

ثم یری البسطامی أنّ الإنسان عندما یصل إلی درجة المعرفة، وهی کشف حقیقة الخالق. فإنّه ینصرف إلیه ویبتعد عن کلّ شیء یُشغله عنه. وفی هذه الفترة نجد یحیی بن مُعاذ الرازی[1] الذی تکلّم فی الرّجاء وعرف الصوفی بأنّه العارف بما فی الباطن مخلوطا بالظاهر، وهو یصف حالة المحبّ، فإذا هو یتطلّعُ إلی حبیبه، وقلبه یکادُ ینقطع من الشّوق إلیه، فیشکو إلیه والقلبُ ینزعُ إلی الحبّ فیقول:

نفسُ المحبّ إلی الحبيب تَطَلَّعُ وفؤادُه من حبّه يتقطّعُ
عزّ الحبيب إذا خلا فی ليله بحبيبه يَشكو إليه ويضرعُ
ويقومُ فی المحراب يشكو بثّه والقلبُ منه إلی المحبّة ينزعُ

ویطرب ابن معاذ لهذا الحبّ ویتعجّب من الّذین یلومونه علی ولوعه بهذا الحبّ فیقول:

طربُ الحبِّ علی الحبِّ مع الحُبِّ يلومُ عجبا لمن رأيناهُ علی الحبِّ يلومُ
حولَ حبّ اللّه ما عشتُ مع الشّوق أحوم وبه أقعُدُ ما عشتُ حياتی وأقوم

(الأصفهانی، ج ۱۰، لاتا: ۶۳)

وممّن له شعر فی الحبّ الإلهی السریّ السَقَطی[2]، أحد رجال الطریقة وأرباب الحقیقة. هو الّذی یحترق قلبه من لوعة الفراق والکربُ قد حال به والصبرُ قد فارقه، لایجد مجالاً للفرار ممّا یعانیه. لِأنّ الذی یفرُّ منه هو ذاته ولهذا فهو یطلبُ من اللّه تعالی أن یُنعم علیه بالفرج ممّا هو به وهو علی قید الحیاة، قائلاً:

۱. هو أبوزکریّا یحیی بن معاذ الرازی الواعظ، أحد رجال الطریقة، خرج إلی بلخ وأقام فیها مدّة ورجع إلی نیسابور ومات بها سنة ثمان وخمسین ومائتین. (ابن خلکان، ج۶، ۱۹۴۸م: ۱۶۵)
۲. هو أبوالحسن بن مغلس السَقَطی، کان واحد أهل زمانه فی الورع وعلوم التوحید وهو خال الجنید وأستاذه. توفی سنة سبع وخمیسن ومائتین ببغداد. (ابن خلّکان، ج۶، ۱۹۴۸م: ۱۰۴)

www.SID.ir

www.SID.ir

القلبُ محترقٌ والدمعُ مستبقٌ　　والكربُ مجتمعٌ والصبرُ مفترقٌ
كيف الفرار على من لافرارَ له　　ممّا جناه الأَسَى والشّوق والقلقُ
يا رَبُّ إن كانَ شيءٌ لی فَرَجٌ　　فامنن علیَّ به مادام بی رَمَقُ

ثمّ يستخدم أسلوب الرمز فيتحدّث عن محبوبته الّتی تتّهمهُ فی إخلاصه للحبّ فيقول:

ولمّا ادّعيتُ الحبَّ قالتْ كذبتَنی　　فما لی أرَی الأعضاءَ منکَ كواسيا
فما الحبُّ حتّی يُلصق الجِلدَ بالحَشا　　وتذبل حتّی لا تُجيب المُناديا
وتنحلُّ حتیّ لايبقی لکَ الهَوَی　　سِوَی مقلةٍ تبكی بها أو تُناجيا

(الطوسی، لاتا: ۳۵۳)

ونمضی فی هذا العصر حتّی نلتقی بالجُنَيْد[1] وهو فی رأس الطبقة الثانية من المتصوفة الذی يری فی حبّ الله أنسَ الفؤاد والأمنية الغائية التی يتمنّاها. وكان الجنيد ممّن يطربُ للوجد الإلهی فقال فی الاحتراق والتعذيب:

يا مُوقد النار فی قلبی لقدرته　　لوشئتَ أطفيتُ عن قلبی بک النارا
لاعارَ إن متُّ من خوفٍ ومِن حذر　　علی فعالک بی لا عارَ، لا عارا

(الطوسی، لاتا: ۲۴۷)

ويستمرّ الجنيد فی مناجاة المحبوب وهو اللّه تعالی فيقول: إنی لا أجدُ أیَّ عار يلحق بی إن متّ من الخوف ومن الحذر فی فعل ما يغضبک. ثم يجعل من الخمرة رمزا ويقول:

فلمّا جُفيتُ وكنتُ لا أجْفی　　ودلائل الهجرانِ لا تُخفَی
وأراک تَسقينی وتمزَجُنی　　ولَقد عهدتُکَ شاربی صِرفا

(الإصفهانی، ج۱۰، لاتا : ۲۷۹)

يعنی أنّنی ابتليتُ بالجفاء والهجران، وكنت فی الماضی لا أعرفها، وما هذه المجافاة

۱. هو أبوالقاسم بن محمد الجنيد الخّزاز القواريری الزاهد الشمهور. أصله من نهاوند ومولده ونشأته فی العراق. وكان شيخ وقته وفريد عصره. توفّی سنة سبع وتسعين ومائتين. (وفيات الأعيان، ج۴، ۱۹۴۸: ۲۹۵)

www.SID.ir

www.SID.ir

وذلک الهجران إلّا بعد تعلّقی بحبّک واستعذابی لکأس ذلک الحبّ الصافی الذی أشربه معک.وکان الجنید یتحسَّر دائما علی أحواله الماضیة ویتأسّف لِأحواله الحاضرة.سأله أحدٌ: علامَ یتأسّف المحبّ؟ فقال: علی زمان بسطٍ أورثَ قبضا، أو زمان أنسٍ، أورثَ وحشةً. فیقول فی هذا الموضوع:

قد کانَ لی مشربٌ یصفو برؤیتکم فکدَّرتْه یدُ الأیّام حینَ صفا

(المصدر نفسه، الصفحة نفسها)

وبعد ذلک نلتقی بالحسن النوری[1] الذی کان یعاصر الجنید. کان النوری عارفا باللّه وشاعرا یکثر فی أشعاره من التعبیر عن الحبّ الإلهی وفکرة الفناء فی الذات الإلهیة. فیتحدّث عن الحسرة التی تقصرُ قلبه من الحبّ وابتلائه بهذا الحبّ الذی یکادُ أن یَقضیَ علیه ولا یُشفی منه إلّا بلقاء الحبیب وهو الله سبحانه وتعالی، قائلاً:

کم حسرة لی وقد غضّت مرارتها جعلَتْ قلبی لها وقفا لبلواکَ
وحقّ ما منک یُبلینی ویُتلِفُنی لأبکینّکَ أو أحْظی بلقیاک

(السلمی، ۱۹۲۵م: ۱۵۳)

ونلتقی فی هذا العصر أیضا سمنون بن عمر المعروف بالخوّاص[2] الذی قال شعرا کثیرا فی المحبّة الرّبانیة وما یصاحبها مِن وجدٍ لایماثله وجدٌ وشوق، وکذلک فکرة الفناء المطلق فی اللّه ولم تبقَ إلّا رغبة واحدة وهی رغبات الانمحاء فی الذات الإلهیة، فیقول:

وکانَ فؤادی خالیا قبلَ حُبّکَم وکان بذکر الخلق یلهو ویمرحُ
فلّما دعا قلبی هواکَ أجابه فلستُ أراه عن فنائک یبرحُ
رُمیتُ ببینٍ منکَ إن کنتُ کاذبا وإن کنتُ فی الدنیا بغیرک أفرحُ
وإن کانَ شیء فی البلاد بأسرها إذا غبتَ عن عینی بعینی یملحُ

۱. هو أحمد بن محمد، خراسانی الأصل: یعرف بابن البغوی وکانَ مِن أجلّ مشایخ القوم وعلمائهم. توفّی سنة خمس وتسعین ومائتین. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۱۶۴ـ۱۶۵)

۲. سمنون بن حمزة الخوّاص، کنیته أبوالقاسم، سمّی نفسه سمنون الکذّاب، صحبَ سریّا السَقَطی، وکان یتکلّم فی المحبة بأحسن کلامٍ وهو من کبار مشایخ العراق. مات بعد الجنید. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۱۹۵)

www.SID.ir

www.SID.ir

فإن شئتَ واصِلنی وَإنْ شئتَ لاتَصِل فلَستُ أری قلبی بغیرکَ یصلح

(السلمی، ۱۹۲۵م: ۱۹۸)

فالحبُّ متمکنّ فیه وهو یجری فی کلّ عضوٍ من أعضائه حتّی أنفاسه الّتی یتنفّسها، یجری فیها الحبّ، فیقول:

قددبّ فی الأعضاء مِن جَسَدی دبیبُ لفظی من روحی وأضماری

ولا تنّفستُ إلّا کنتَ مع نفسی وکلُّ جارحةٍ من خاطری جاری

فلیسَ لی فی سواک حظٌ فکیفما شئتَ فامتَحِنی

إن کانَ یرجو سواک قلبی لانِلتُ سؤلی ولا التَمنّی

(المصدر نفسه: ۱۹۵)

وَمن تلامذة الجُنَید، أبو علی الروذباری[۱]، وکان یقول المرید هو الّذی لایریدُ لنفسه إلّا ما أراد الله له، یعنی تفنی إرادته فی الإرادة الإهیة بحیثُ لایحسّ المرید أو الصوفی شیئا فی الکون سوی اللّه، وهو الذی یقول:

من لم یکن بک فانیا عن حبّه وعن الهَوَی والأنس بالأحباب

فکأنّه بین المراتب واقفٌ لمنال حَظٍّ أو لحسن مآب

ویقول أیضا:

روحی إلیکَ بکلّها، قد أجْمَعَتْ لو أنَّ فیک هلاکَها ما أقلَعَتْ

تبکی إلیک بکلِّها عن کلِّها حتّی یُقال مِن البکاءِ تقطّعتْ

فانظر إلیها نظرةً بتعطّفٍ فطالما متَّعَتْها فتمتَّعتْ

(السلمی، ۱۹۲۵م: ۳۵۸)

یقف أبو علی الروذباری بین یدی المحبوب، وهو اللّه عزَّ وجلَّ ویقولُ له بلغة الصوفی المحبّ الذی أخلصَ فی حبّه وتوجّه بکلِّ جوارحه إلی حبیبه:

۱. هو أحمد بن محمّد بن القاسم بن منصور بن شهریار وهو من أهل بغداد. سکن مصرَ وصار شیخها ومات بها، صحبَ الجنید وأبا الحسن النوری. وکان عالما فقیها، حافظا للحدیث. توفی سنة اثنتین وعشرین وثلاثمائة. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۳۵۴ـ۳۵۵)

www.SID.ir

www.SID.ir

وحقّکَ لانظرتُ إلی سواکا بعین مودّةٍ حتّی أراکا
ولا استحسَنْتُ فی نظری جمالاً ولا أحببتُ حبّا غیر ذاکا
ولا استلذذتُ فی الدنیا لذیذا ولالی بغیة إلّا رضاکا
فمُنَّ بنظرةٍ فضلاً ومنّا وبلّغنا المُنَی حتی أراکا

(الیافعی، لاتا: ۲۰۶)

والروذباری یکثر من استخدام الرمز فی أکثر قصائده. والمصطلحات الصوفیة قد کثرت فی شعره.والذی کان یعاصر الروذباری، هو أبوسعید الخزّاز[۱]، الذی تحدّث عن الوجد والشوق الإلهی وعن حنین قلوب العارفین إلی الذکر ومناجاتهم الدائمة، حتی یصل بهم الأمر إلی نشوة ذکر اللّه تسکرهم، کما یسکر السکّیر من الخمر، وهم عند ما تُدار کؤوس الموت علیهم تراهُم یستقبلونها بشغفٍ وشوقٍ کاستقبال شارب الخمر بکأسه، فیستخدم الرمز ویقول:

حنین قلوب العارفین إلی الذّکر وتذکارهم عندالمناجاة للسرِّ
أدیرتْ کوؤس المنایا علیهمُ فاغفوا من الدنیا کاغفاء ذی السّمر
همومُهم جوّالة بمعسکرٍ به أهلُ وُدّ اللّه کالأنجم الزُّهر
فأجسامُهم فی الأرض قتلی بحبّه وأرواحُهُم فی الحُجب نحو العُلی تَسری

(الیافعی، لاتا: ۲۰۷)

ومِن أشهر تلامدة الجنید الحسین بن منصور المعروف بالحلاّج[۲]. صَحبَ الجنیدَ وأخذ عنه شطحاتِه وبالغَ فیها و وقع فی نفسه أنّه أعلی من الجنید فی علم التصوّف وأرفع، وأنّه رقی مرتبة الکمال. جاد له الجنید فی فکرته التی روّجَ لها. وهی أنّ الزاهد إذا تحمّلَ المشاق والآلام وظلّ یُصفّی نفسه بالمجاهدات والریاضات المضنیة، انتهی

۱. هو أحمد بن عیسی من أهل بغداد. صحَب ذاالنون المصری وغیرهُ وهو مِن أئمة القوم وجلّة مشایخهم وأوّل من تکلّم فی علم الفناء والبقاء، مات سنة تسع وسبعین ومائتین. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۲۲۸)
۲. هوالحسین بن منصور الحلاّج المکنّی أبا مغیث وکان جدّه مجوسیّا اسمه محمّد من أهل بیضاء فارس. نشأ الحسینُ بواسطَ وقدم بغدادَ. فخالط الصوفیة وله إلی الآن أصحاب ینسبون إلیه. قتل سنة تسع وثلاثمائة لقوله: بحلول اللاهوت فی الناسوت. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۳۰۷ـ۳۰۸)

www.SID.ir

www.SID.ir

الدرجة الرفيعة التی يبتغيها، إذ يتمثّل فی نفسه حقيقة الصورة الإلهية الّتی سوّاها اللّه فيه. وبذلک يصبح هو والحقّ بمنزلة سواء. وكان يقول ما رأيتُ شيئا إلّا ورأيتُ اللّه فيه، فيقول:

مزجت روحک فی روحی کما ... تُمزجُ الخمرة بالماء الزلالِ
فإذا مسّکَ شیءٌ مسَّنی ... فإذا أنتَ أنا، فی کلّ حال

(الخطيب البغدادی، ج۸، ۱۹۳۱م: ۱۱۵)

وتزداد حالة الوجد الصوفی عند الحّلاج حتّی نراه قد تحوّل إنسانا يعيش لمحبوبه فهو منتهی الغايات وكلّ الآمال، لِأجله يحيی وفی سبيل رضاه يعيش وهو معه إن تحرّک وإن تنفّس فيقول:

واللّه ما طلعتْ شمس ولاغربتْ ... إلّا وحبّک مقرون بأنفاسی
ولا جلستُ إلی قومٍ أحدثّهم ... إلّا وأنتَ حديثی بينَ جُلّاسی
ولا ذكرتُ محزنا ولا فرحا ... إلّا وأنتَ بقلبی بينَ وسواسِ
ولا هممتُ بشرب الماء من عطش ... إلّا رأيتُ خيالاً منکَ فی الكأسِ
ولو قدّرتُ علی الاتيان جئتكُم ... سعيا علی الوجه أو مشيا علی الرأس

(المصدر نفسه: ۱۱۷ـ۱۱۸)

وكان يقول مَن أسكرتْه أنوار التوحيد. حجبتهُ عن عبارة التجريد، بل مَن أسكرته أنوار التجريد، نطق عن حقائق التوحيد، لِأنّ السكران هو الذی ينطق بكلّ مكنون. فلهذا، فلّما أخرجَ للقتل خرَج بتبختٍر فی قيده ويقول:

نديمی غير منسوب ... إلی شیءٍ من الحيفِ
سقانی مثلما يشرب ... كفعل الضيفِ بالضيفِ
فلّما دارت الكاسات ... دعا بالنّطع والسيفِ
كذا من يشرب الراحَ ... مع التنّين فی الصيف

(الشعرانی، ج۱، ۱۹۲۵م: ۹۳)

www.SID.ir

www.SID.ir

وممّن عاشر الجنيد وتتلمذَ على يديه كذلک، أبوبكر الشبلی[1]، الذی كانَ ينكر على الحلّاج قوله عن تجلّی اللّه تعالى فی عبيده ومخلوقاته، فاللّه فی رأيه واجب الوجود وهو شیءٌ ومخلوقاته شیءٌ آخر وكان يتحدّث كثيرا عن الأحوال والمقامات، وكان يُبدی ويُعيد فی الحديث عن حبّه ومِن قوله:

إذا ما كنتَ لی عيدا ... فما أصنع فی العيدِ
جَری حبّک فی قلبی ... كجری الماء فی العود

(المصدر نفسه: ۳۴۵)

ثم يرمز ويقول:

تغنّی العودُ فاشتقنا ... إلى الأحباب إذا غَنّی
وكُنّا حيثما كانوا ... كانوا حيثُما كُنّا

(المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

وهناک شخصيّات بارزة أخرى من الصوفية لانذكر أسمائهم ونكتفی بهذه الشخصيات المذكورة.

النتيجة

وأمّا الخلاصة التی نستنتجها فيما تقدّم، أنّ الزهد تطوّر شيئا فشيئا إلى التصوف وهذه الأبيات المذكورة تصوّر حالة الصوفية وصفاتهم التی يمتازون بها عن سائر البشر، فقلوبهم لهم عيون ترى ما لايراه الآخرون وألسنتهم تلهجُ بالسّر والعلانية، فيجّل لهم ما يقولون علنا، وأمّا ما يقولون سرّا فيخفی على الملائكة الموكول إليهم الكتاب ويرمزون فی أشعارهم، ورأينا ممّا تقدّمنا أنّه استخدام الخمر رمزا للحبّ الإلهی عندالصوفية قديم العهد ويرجع إلى القرن الثانی للهجرة.

---

۱. اسمه دُلَف، يقال ابن جَحدر ويقال: ابن جعفر ويقال: اسمه جعفر بن يونس. هو خراسانی الأصل، بغدادی المنشأ والمولد، ويقال ولد فی سامرّا، صحبَ الجنيد. كان عالما فقيها على مذهب مالک. مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. (السلمی، ۱۹۲۵م: ۳۳۷ـ۳۳۸)

www.SID.ir

www.SID.ir

المصادر والمراجع

ابن خلکان، شمس‌الدین أحمد بن محمد. ۱۹۴۸م. وفیات الأعیان. تحقیق محمد محی الدین عبدالحمید. الطبعة الأولی. القاهرة: مکتبة النهضة المصریة.

الاصفهانی، أبونعیم أحمد بن عبدالله. لاتا. حلیة الأولیاء وطبقات الأصفیاء. بیروت: دار الکتاب العربی.

بدوی، عبدالرحمن. ۱۹۷۸م. شهیدة العشق الإلهی. الکویت: وکالة المطبوعات.

الخطیب البغدادی، أحمد بن علی. ۱۹۳۱م. تاریخ بغداد. الطبعة الأولی. القاهرة: مکتبة الخانجی.

السلمی، عبدالرحمن. ۱۹۲۵م. طبقات الصوفیة. تحقیق نورالدین سریبة. الطبعة الأولی. القاهرة: جماعة الأزهر للنشر والتألیف.

الشعرانی، عبدالوهاب. ۱۹۲۵م. الطبقات الکبری. الطبعة الأولی. القاهرة: مطبعة الأزهر.

الطوسی، سراج الدین. لاتا. اللمع فی التصوف. مصر: دار الکتب الحدیثة.

عبدالباقی سرور، طه. ۱۹۵۴م. رابعة العدویة والحیاة الروحیة فی الإسلام. الطبعة الأولی. القاهرة: مطابع دار الکتاب العربی.

ـــــــــــــــ . ۱۹۴۸م. شخصیات صوفیة. الطبعة الأولی. القاهرة: شرکة ومکتبة ومطبعة البابلی الحلبی.

الیافعی، عبدالله بن أسعد. لاتا. روض الریاحین فی حکایات الصالحین. لانا.

www.SID.ir